الدرس الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين . أما بعد :

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَكَذَلِكَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» -مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ- أَنَّهُ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَعْلَاهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ».

وَهَذَا صَرِيحٌ أَنَّ الْإِيمَانَ يَشْمَلُ: أَقْوَالَ اللِّسَانِ، وَأَعْمَالَ الْجَوَارِحِ، وَالِاعْتِقَادَاتِ، وَالْأَخْلَاقَ، وَالْقِيَامَ بِحَقِّ اللهِ، وَالْإِحْسَانَ إِلَىٰ خَلْقِهِ.

فَجَمَعَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَصْلِهِ وَقَاعِدَتِهِ؛ وَهُوَ قَوْلُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله» اعْتِقَادًا، وَتَأَلُّهًا، وَإِخْلَاصًا للهِ، وَبَيْنَ أَدْنَاهُ؛ وَهُوَ إِمَاطَةُ الْعَظْمِ وَالشَّوْكَةِ وَكُلِّ مَا يُؤْذِي عَنِ الطَّرِيقِ، فَكَيْفَ بِمَا فَوْقَ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ؟

وَذَكَرَ الْحَيَاءَ -وَالله أَعْلَمُ-؛ لِأَنَّ الْحَيَاءَ بِهِ حَيَاةُ الْإِيمَانِ، وَبِهِ يَدَعُ الْعَبْدُ كُلَّ فِعْلٍ قَبِيحٍ، كَمَا بِهِ يَتَحَقَّقُ بِكُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ.

وَهَذِهِ الشُّعَبُ -الْمَذْكُورَةُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ- هِيَ جَمِيعُ شَرَائِعِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ.

وَهَذَا -أَيْضًا- صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ بِحَسَبِ زِيَادَةِ هَذِهِ الشَّرَائِعِ وَالشُّعَبِ، وَاتِّصَافِ الْعَبْدِ بِهَا أَوْ عَدَمِهِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ فِيهَا تَفَاوُتًا كَثِيرًا، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، فَقَدْ خَالَفَ الْحِسَّ، مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِنُصُوصِ الشَّارِعِ، كَمَا تَرَىٰ.

الشرح :

فهذا الحديث يعرف عند أهل العلم بحديث الشعب ، وهو حديثٌ عظيمٌ جداً ، ذكر فيه النبي الكريم صلىٰ الله عليه وسلم أن الإيمان شعبٌ كثيرة ، وأنه يشمل أموراً عديدة ، وأن له أعلىٰ وأدنىٰ ، وأن أعلىٰ الإيمان قول لا إله إلا الله ، وهذا فيه دلالة علىٰ أن قول لا إله إلا الله هو أرفع الإيمان شأناً وأعلاه مكانة ، وهي الكلمة التي يبنىٰ عليها دين الله سبحانه وتعالىٰ وأن أدنىٰ الإيمان إماطة الأذىٰ عن الطريق وهذا فيه دلالة علىٰ أن الأعمال الصالحة وإن قلّت فهي داخلة في مسمىٰ الإيمان ، ويشملها اسمه إضافةً إلىٰ شموله لأعمال القلوب ، ولهذا قال في الحديث : (**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**) فهذا الحديث حديثٌ عظيمٌ جداً ، ومليءٌ بالفوائد وبعض العلماء رحمهم الله تعالىٰ أفرده بالتصنيف ، بل إن بعضهم كتب في هذا الحديث مجلدات ، مجلداتٍ مطولة لاسيما من انطلق من هذا الحديث في محاولة لعدّ شعب الإيمان وبيان خصاله العظيمة ، بدءا بأعلاه شأناً قول لا إله إلا الله ، وانتهاءً بأدناه ألا وهو إماطة الأذىٰ عن الطريق ، ولما ذكر الشيخ رحمه الله تعالىٰ هذا الحديث قال : (**وَهَذَا صَرِيحٌ أَنَّ الْإِيمَانَ يَشْمَلُ: أَقْوَالَ اللِّسَانِ، وَأَعْمَالَ الْجَوَارِحِ، وَالِاعْتِقَادَاتِ، وَالْأَخْلَاقَ، وَالْقِيَامَ بِحَقِّ اللهِ، وَالْإِحْسَانَ إِلَىٰ خَلْقِهِ**) فجمع في هذا الحديث بين هذا كله ، وأما أقوال اللسان ، ففي قوله عليه الصلاة والسلام : (**أَعْلَاهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،**) وأما

أعمال الجوارح فيدل عليه قوله : (**إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ**) وأما الاعتقادات ففي قوله : (**قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ،**) لأن القول إذا أطلق يراد به قول اللسان نطقاً ، وقول القلب اعتقاداً ، فمثلاً قول الله عز وجل : ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ المراد قولوا ذلك بقلوبكم عقيدةً ، وبألسنتكم نطقاً ، بقلوبكم عقيدةً ، وبألسنتكم نطقاً ، فالقول إذا أطلق فإنه يشمل قول القلب واللسان ، بينما إذا قيّد بأحدهما فهو بحسب ما قيّد به ، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ قيّد القول بالأفواه فلا يشمل القلوب ، لكنّ القول إذا أطلق فإنه يشمل قول القلب أي عقيدةً ، ويشمل قول اللسان أي نطقاً وتلفظاً ، وأما شموله للأخلاق فإن إماطة الأذىٰ عن الطريق من الأخلاق الفعلية في التعاملات بين الناس ، والحياء خلقٌ عظيم ورفيع الشأن ، وتنبني عليه الأخلاق الفاضلة كلها ، فهو خلقٌ يقوم في القلب يحجز عن الرذائل والقبائح ، ويحطُّ صاحبه علىٰ فعل الأعمال الحسنة ، والصفات الحميدة ، قال : (**وَالْقِيَامَ بِحَقِّ اللهِ،**) أي من العبودية له سبحانه وتعالىٰ ، (**وَالْإِحْسَانَ إِلَىٰ خَلْقِهِ.**) أي في التعامل معهم ، فهذا الحديث جمع الدين كله ، ودلّ دلالة صريحة كما نبه رحمه الله تعالىٰ علىٰ أن الإيمان يشمل أقوال اللسان وأعمال الجوارح واعتقادات القلوب ، والتعاملات التي تكون بين العباد ، كل ذلك شمله هذا الحديث ، كما أن فيه دلالة علىٰ أن خصال الإيمان متفاوتة في الفضل ، وأنها ليست علىٰ رتبة واحدة ودرجة واحدة ، فذكر لشعب الإيمان أعلىٰ ، وذكر لها أدنىٰ ، قال : (**أَعْلَاهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ**) وبين هاتين الشعبتين شعبٌ كثيرة ، منها ما هي قريبة للأعلىٰ ومنها ما هي قريبةٌ للأدنىٰ فالإيمان شعبٌ كثيرة ، وهي متفاوتة في الفضل ، وهذا يستفاد منه فائدة أخرىٰ ، نبه عليها الشيخ رحمه الله تعالىٰ وهي أن الإيمان يزيد وينقص ويقوىٰ ويضعف بحسب حظ العبد من هذه الشعب ، فكلما زاد من شعب الإيمان زاد إيمانه ، وكلما نقص من شعب الإيمان نقص إيمانه ، والناس يتفاوتون تفاوتاً عظيماً في العناية بهذه الشعب والقيام بها ، فالإيمان يزيد وينقص ، ويقوىٰ ويضعف وذلك بحسب حظ الناس من شعب الإيمان ، وقول النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث : (**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً**) هل المراد في ذكر العدد التعيين ؟ أو الحصر ؛ حصر شعب الإيمان بهذا العدد ؟ أو المراد الكثرة ؟ كثرة شعب الإيمان ، بعض أهل العلم قال إن المراد حصر شعب الإيمان بهذا العدد ، وأن شعب الإيمان عددها بضعٌ وسبعون شعبة ، ولهذا بعض أهل العلم ، كما قدمت الإشارة إلىٰ ذلك جمعوا مصنفات عددوا فيها شعب الإيمان ، فأوصلوها في الجمع إلىٰ بضع وسبعين شعبة علىٰ اعتبار أن العدد له مفهوم وأن النبي صلىٰ الله عليه وسلم حصر الشعب بهذا العدد ، ومن أهل العلم من قال : أن العدد لا مفهوم له ، وأن المراد بالسبعين الكثرة ، وأن العرب تستعمل هذا العدد للكثرة ، مثل قوله :﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ليس المراد العدد نفسه وإنما المراد الكثرة ؛ يعني إن تستغفر لهم مرات كثيرة جداً لا يغفر الله سبحانه وتعالىٰ لهم ، وعلىٰ كل شعب الإيمان سواء قيل بحصرها في هذا العدد أو لم يقل فهي موجودة في الكتاب والسنة والواجب علىٰ العبد أنَّ تعظم عنايته بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وأن يحرص علىٰ القيام بأعمال البر والخير والطاعة والإحسان والعبادة لله سبحانه وتعالىٰ ، ويستكثر من هذه الأعمال الصالحة ، لأنها كلها شعب للإيمان ، وإذا كان أمر الإيمان كما تقدم معنا مثله كمثل الشجرة : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ ومن المعلوم أن المرء إذا رأىٰ الشجرة يرىٰ لها فروع كثيرة جداً ، وكلما كثرت الفروع وازدانت وطابت طاب منظر هذه الشجرة وطابت ثمارها ، فكذلك الإيمان كلما أكثر العبد من فروعه الطيبة وخصاله العظيمة ، وخلاله

المباركة ، كلما كان ذلك أمكن في إيمانه ، وقد مرّ معنا قول الشيخ رحمه الله تعالىٰ : أن الأعمال تحقق الإيمان ، كما أنها من لوازم الإيمان فهي أيضاً بها يتحقق الإيمان ، فمعنىٰ ذلك أن العبد كلما استكثر من الأعمال الصالحة ؛ أعمال الإيمان وخصاله العظيمة كان ذلك أمكن وأعظم في تحقيق إيمانه .

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاوَتُونَ فِيهَا تَفَاوُتًا كَثِيرًا، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، فَقَدْ خَالَفَ الْحِسَّ، مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِنُصُوصِ الشَّارِعِ، كَمَا تَرَىٰ.
وَقَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ صلىٰ الله عليه وسلم الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورِ، حَيْثُ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ عَنِ الْإِيمَانِ؟ فَقَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ». وَفَسَّرَ الْإِسْلَامَ بِالشَّرَائِعِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ؛ لِأَنَّهُ -كَمَا تَقَدَّمَ- إِذَا قُرِنَ بِالْإِيمَانِ غَيْرُهُ؛ فُسِّرَ الْإِيمَانُ بِمَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ، وَالْإِسْلَامُ أَوِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ بِالشَّرَائِعِ الظَّاهِرَةِ، وَأَمَّا عِنْدَ الْإِطْلَاقِ -إِذَا أُطْلِقَ الْإِيمَانُ- فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ يَشْمَلُ ذَلِكَ أَجْمَعَ .

الشرح :

أشار رحمه الله تعالىٰ هنا إلىٰ حديث جبريل ؛ حديث جبريل المشهور وهذا الحديث العظيم يعرف عند أهل العلم بأمّ السنة ، كما أن الفاتحة أمّ القرآن ، وذلك لأن الفاتحة اشتملت إجمالاً علىٰ ما اشتمل عليه القرآن تفصيلاً ،
فالفاتحة أجملت ما فصّل في القرآن ، وحديث جبريل يسمىٰ أمّ السنة ؛ لأنه اشتمل اجمالاً ما اشتملت عليه السنة تفصيلاً ، فحديث جبريل أجمل والسنة فصّلت ذلك ، فهو أمّ السنة ؛ لأنه جامع للدين كله ، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في تمام هذا الحديث : [هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم] فالدين هو هذا الذي ذكر في الحديث ، وجبريل جاء علىٰ صفة السائل لكنه في الحقيقة معلم ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام [يعلمكم دينكم] وهذا يستفاد منه أن بعض السائلين قد يكون معلم للخير بأسئلته المباركة الصادقة النافعة التي يتلمس فيها حاجات الناس وما يحتاجون إليه من العلم ، فيكتب له أجر ما يكون من بيان وإيضاح وتبصير للناس في دينهم ، وكم من السؤلات التي حصل أو ترتب عليها الخير العظيم ، الآن تجد مؤلفات نافعة جداً لبعض الأئمة أساسها سؤالٌ من أحد السائلين ، من رجلٍ محب ناصح لنفسه ولإخوانه فيكتب سؤالاً نافعاً لأحد أهل العلم الأكابر ، ويقصد أن يستفيد وأن يستفيد الناس ويبارك الله سبحانه وتعالىٰ في سؤاله ، وفرق بين هذه السؤلات وبين من لا هم له في الأسئلة إما لإظهار نفسه أو التشويش علىٰ الناس أو إثارة الشبهات أو غير ذلك من الأغراض السيئة والعياذ بالله ، ولهذا الأسئلة جزءٌ من العلم ، والعلم جزءٌ من دين الله ، العلم عبادة من العبادات التي يتقرب إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ بها ، ولهذا يجب أن يتنبه إلىٰ أن الأسئلة يجب أن تكون خالصه لله ، لا يقصد السائل إلا التقرب إلىٰ الله بالفقه في دينه ومعرفة ما يجب عليه ، أما ما سوىٰ ذلك من الأغراض فهذه لا تدخل بها تلك الأسئلة في صالح عمله ، وربما دخلت الأسئلة في سيء عمل الإنسان ، إما لفساد مقصده أو لخبث سؤلاته بحيث تكون أسئلة يراد بها إثارة الشبهات والشكوك والتشويش علىٰ الناس والتشويش لهم في عقائدهم أو التشكيك لهم في عباداتهم وأعمالهم وأخلاقهم ، فالحاصل أن من الأسئلة ما هي أسئلة يراد بها التعليم ، قال [هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم] وجبريل لما سأل النبي عليه الصلاة والسلام سأله أولاً عن الإسلام ثم سأله عن الإيمان ، ففي بيان الإسلام قال النبي عليه الصلاة والسلام : [أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن

محمداً رسول الله وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام] وفي الإيمان قال : [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره] ففسر صلوات الله وسلامه عليه الإسلام بالأعمال الظاهرة وفسّر الإيمان بالإعتقادات الباطنة التي في القلب ، فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، وفسّر الإيمان بالإعتقادات الباطنة التي مكانها ومحلها القلب ، وهذا يستفاد منه أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا في الذكر ؛ أي ذكرا في موضعٍ واحد افتراقا في المعنىٰ فكان الإسلام هو الأعمال الظاهرة ، والإيمان هو الإعتقادات الباطنة ، وإذا افترقا في الذكر أيٍ ذكرا كلٌ منهما مفرداً شمل الأمرين معـًا ، شمل الدين كله ، وهذا فيه قاعدة لأهل العلم ، فيها تقرير هذا الأمر .

إن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسمياتٍ متعددة عند إفراده وإطلاقه ، فإذا قرن ذلك الإسم بغيره صار دالاً علىٰ بعض تلك المسميات ، والإسم المقرون به دالٌ علىٰ باقيها .

والشيخ رحمه الله يقول : تقدم أن الإيمان قد يقرن بغيره ، مثل ما مر معنا قرن الإيمان بالتقوىٰ وبالصبر وبالأعمال الصالحة ، مثله كذلك أن يقرن الإيمان بالإسلام يراد بالإيمان الإعتقادات التي محلها القلب ، ويراد بالإسلام الأعمال الظاهرة ، لكن إذا ذكر الإيمان مفرداً شمل الدين كله عقيدة وعبادة ، وإذا ذكر الإسلام مفرداً مثل : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ ومثل : ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ ومثل : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ هذه النصوص التي يذكر فيها الإسلام مفرداً يشمل الدين كله ، العقيدة والعبادة ، لكن إذا قرن الإسلام بالإيمان فإنه يراد بالإيمان الإعتقادات القلبية ، ويراد بالإسلام الأعمال الظاهرة .

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» -مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ- أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ؛ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».
فَأَخْبَرَ صلىٰ الله عليه وسلم أَنَّهُ لَا يَتِمُّ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّىٰ يُقَدِّمَ مَحَبَّتَهُ عَلَىٰ مَحَبَّةِ أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ، وَعَلَامَةُ ذَلِكَ: إِذَا تَعَارَضَتِ الْمَحَبَّتَانِ؛ فَإِنْ قَدَّمَ مَا يُحِبُّهُ الرَّسُولُ؛ كَانَ صَادِقَ الْإِيمَانِ، وَإِلَّا فَهُوَ نَاقِصُ الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

[سُورَةُ النِّسَاءِ].

فَأَقْسَمَ تَعَالَىٰ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوا رَسُولَهُ، وَلَا يَبْقَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ حَرَجٌ وَضِيقٌ مِنْ حُكْمِهِ، وَيَنْقَادُوا لَهُ انْقِيَادًا، وَيَنْشَرِحُوا لِحُكْمِهِ، وَهَذَا شَامِلٌ فِي تَحْكِيمِهِ فِي أُصُولِ الدِّينِ، وَفِي فُرُوعِهِ، وَفِي الْأَحْكَامِ الْكُلِّيَّةِ، وَالْأَحْكَامِ الْجُزْئِيَّةِ.

الشرح:

وهذا الحديث حديث أنس رضي الله عنه **أَنَّ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ؛ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».**فيه تفسير للإيمان ، وأن من الإيمان محبة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم محبةً

مقدمة علىٰ محبة الوالد والولد والناس أجمعين بل وأيضاً علىٰ محبة النفس ، كما جاء في صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، قال : لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه ، قال عمر : لأنت والله الآن أحب إلي من نفسي ، قال : الآن يا عمر .

فمن الإيمان أن يحب الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وسلم محبة مقدمة علىٰ محبة النفس ، ومحبة الوالد ومحبة الولد ومحبة الناس أجمعين ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم : يدل علىٰ معاني عديدة منها : أنه أحرص علىٰ نفسك منك ، وأنصح لك ، وأنصح لنفسك من نفسك ، صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا يستوجب أن تكون محبتك له صلىٰ الله عليه وسلم مقدمة علىٰ محبتك لنفسك فهو أولىٰ بنفسك منك وأحرص علىٰ نفسك منك وأنصح لنفسك منك ، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، فيجب أن يقدم أن تقدم محبته علىٰ محبة النفس وعلىٰ محبة الوالد والولد والناس أجمعين ، ولما كان أمر المحبة أمراً عظيماً ، وأيضاً لما كان من السهل أن يدعيها كل أحد ، ولما كان أيضاً من السهل أن يعبر عن هذه المحبة بعض الناس بما أراد أو شاء من أعمال جاءت الشريعة ضابطة لهذا الأمر ؛ أمر المحبة وأن الأمر ليس أمراً مفلوتاً يفعل الإنسان ما شاء بدعوىٰ المحبة أو إظهار المحبة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، ولهذا تأمل الكلام الجميل الذي قاله رحمه الله ، لما ذكر الحديث قال : أنه إذا تعارضت المحبتان فقدم ما يحبه الرسول صلىٰ الله عليه وسلم كان صادق الإيمان وإلا فهو ناقص الإيمان ، وهذا يستفاد منه أن محبة النبي عليه الصلاة والسلام ليست أمر يدعيه الإنسان مجرد إدعاء وإنما محبة الرسول عليه الصلاة والسلام أمرٌ عظيم يقوم في قلب المحب يثمر إتباعاً لهذا الرسول عليه الصلاة والسلام وسيراً علىٰ نهجه وترسما لخطاه كما قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ قال الإمام بن كثير رحمه الله تعالىٰ : [هذه الآية حاكمة علىٰ كل من ادعىٰ محبة الله دون لزومٍ للنهج النبوي والشرع المحمدي بأن دعواه كاذبة] فدعوة المحبة كاذبة ما لم يظهر البرهان علىٰ صدقها ، وبرهان صدقها اتباع الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا نرىٰ الفرق ويرىٰ المتأمل الفرق بين حياة المحبين الصادقين ابتداءً بالصحابة رضي الله عنهم وانتهاءً بكل من اتبعهم بإحسان وبين محبة الأدعياء للمحبة ، الصحابة رضي الله عنهم مظاهر المحبة للنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ظهرت بينة جلية في إتباعهم له ، وسيرهم علىٰ منهاجه وترسمهم لخطاه عليه الصلاة والسلام ، ومحافظتهم علىٰ أمور الدين فرضها ونفلها ، واجبها ومستحبها ، بينما من جاء بعدهم فرّط في فرائض الدين وضيّع ذلك تضيعاً عظيماً واشتغل بالبدع المحدثة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، وإذا سئل لماذا تفعل هذه البدع ؟ قال : لأني أحب الرسول عليه الصلاة والسلام ، من قال لك أن محبته تظهر ويكون إظهارها بممارسة هذه البدع ؟! أليس الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم أعظم محبة للنبي عليه الصلاة والسلام منك ؟ ! أليست محبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية العشرة والصحابة أعظم محبة ممن جاء بعدهم ؟! فلم لم تكن عندهم هذه الأمور ولم لم يفعلوها ؟!

والجواب الذي لا جواب غيره علىٰ ذلك أن محبة الصحابة للنبي صلىٰ الله عليه وسلم محبة صادقة مزمومة بزمام الشرع ، ومحبة هؤلاء محبة مدعىٰ مفلوته بإنفلات الهوىٰ ، ضائعة تائهة ، فشتان بين المحب الصادق الذي تظهر محبته إتباعاً للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام وسيراً علىٰ منهاجه القويم ، وبين من محبته مجرد محبة إدعاء لا يظهر علىٰ أعماله برهانها ودليل صدقها ، فهذا الحديث له نظائر في السنة يدل أو يبين كيف تكون المحبة صادقة للنبي صلىٰ الله عليه وسلم ، وكيف تكون مدعاة .

ثم تأمل البيان الجميل الذي أتبعه رحمه الله تعالىٰ لبيانه لهذا الحديث بإيراده للآية الكريمة **كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

هذا برهان المحبة أن يكون المجب محكماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، أما من يحكم هواه ويقدم هواه علىٰ شرع الله أين محبته الصادقة للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ؟! ووالله إن من الناس حتىٰ في زماننا هذا من يمارس أموراً من البدع لا يفوتها إدعاءً منه أنها من علامات المحبة الصادقة للنبي عليه الصلاة والسلام ويضيع فرائض الإسلام ، بعضهم يحتفل في الليل علىٰ بدعة من البدع المحدثة وينام عن صلاة الفجر ، صلاة الفجر ينام عنها لا يصليها ويكون أنهك نفسه في الليل بالإحتفال المبتدع المحدث بين طبل ونشيد وأمور من هذا القبيل ، وإذا جاء وقت الفريضة فإذا جسمه قد انهك بهذه الأمور التي يدعي ودخل عليه الشيطان أنها من محبة الرسول عليه الصلاة والسلام ، محبة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم فعل الفرائض ، محبة الرسول عليه الصلاة والسلام بدل تلك الأناشيد والطبل إلىٰ آخره ، أن يقوم ثلث الليل الآخر يناجي ربه ، يصدق مع الله عز وجل في دعائه مناجاته وسؤاله وطلبه جل في علاه ، لكن تلاعب الشيطان ببعض الناس تلاعباً عجيباً وأبعدهم عن دين الله سبحانه وتعالىٰ وأوهمهم أن هذا الذي يفعلونه هو الدين ، وأنه هو المحبة ، وفي الوقت نفسه أوهمهم أيضاً من لا يفعلون مثله لكنهم محافظين علىٰ الفرائض متبعين للسنة ، ملازمين لهدي النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنهم لا يحبون الرسول صلىٰ الله عليه وسلم ،وهذا والله من أعظم التلاعب ؛ تلاعب الشيطان ببعض الناس ، وصدهم عن دين الله سبحانه .

الحاصل أن الواجب علىٰ المرء المسلم أن يفقه هذا الباب فقهاً عظيماً وأن يفهم حقيقة هذه المحبة ؛ محبة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام التي لا إيمان لم من كما قال عليه الصلاة والسلام : [لمن لم يقدمها علىٰ محبته لنفسه وولده ووالده والناس أجمعين] قال صلىٰ الله عليه وسلم : [لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين] .

ونسأل الله جل في علاه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا أن يعمر قلوبنا بمحبة صادقة لنبينا الكريم عليه الصلاة والسلام مقدمة علىٰ محبتنا لأنفسنا ووالدينا وأولادنا والناس أجمعين .

قال رحمه الله تعالىٰ :

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَيْضًا -عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا-: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ».

وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَن يَقُومَ بِحُقُوقِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ بِذَلِكَ وَيُحِبَّ لَهُمْ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنِ الْإِيمَانَ الْوَاجِبَ، بَلْ نَقَصَ إِيمَانُهُ بِقَدْرِ مَا نَقَصَ مِنَ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ.

الشرح :

هذا الحديث العظيم ؛ حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : **«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ»**. فيه أن محبتك لأخيك المسلم مثل ما تحب لنفسك هذا جزء من الإيمان ، جزء من الإيمان الواجب الذي أوجبه الله سبحانه وتعالىٰ عليك أن تحب لأخيك وإخوانك المسلمين مثل ما تحب لنفسك من الخير ، والمحبة مكانها القلب ، تحب لهم السعادة ، تحب لهم النجاة من النار ، تحب لهم العلم النافع ، تحب لهم الرزق الطيب ، تحب لهم صلاح الذرية ، تحب لهم السلامة من الأمراض ، كلما تحب لنفسك أحبه لإخوانك المسلمين إن لم تفعل ذلك فقد فرّط في إيمانٍ أوجبه الله عليك ، من أين عرفنا أن الله أوجب عليك ذلك ؟ من نفي النبي صلىٰ الله عليه وسلم

الإيمان لمن لم يكن كذلك ، والإيمان لا ينفىٰ إلا في ترك واجب ، الإيمان لا ينفىٰ إلا في ترك واجب أو فعل محرم ، هذه قاعدة : لا ينفىٰ الإيمان في نصوص الشرع إلا في ترك واجب أو فعل محرم ، لا ينفىٰ الإيمان في ترك مستحب ، المستحب إن فعلته أثابك الله وإن لم تفعله لا يعاقبك الله ، لكن لا ينفىٰ الإيمان عن من لم يفعل المستحب ، لا يقال في حق من لم يفعل المستحب لا يؤمن ، أو ليس منا ، لكن الإيمان الواجب ينفىٰ الإيمان ، والمراد بالإيمان المنفي في مثل هذه الأحاديث هو الإيمان الواجب لا أصل الإيمان ،و معنىٰ ذلك أن من لم يفعل ذلك عرّض نفسه للعقوبة لأن الله أوجب عليه ذلك ، وهذا يفيد ما أشار إليه الشيخ رحمه الله تعالىٰ أن هذه المحبة الصادقة لإخوانك المسلمين مثل ما تحب لنفسك هو الذي يطرد عن قلبك أمراض القلوب من الغل والحقد والحسد والضغينة ، وأشياء كثيرة جداً ، كل هذه تدخل علىٰ القلب إذا فسدت هذه الخصلة لم يحب لهم ما يحب لنفسه ، أما إذا كان القلب طيب وسليم تجاه إخوانه المسلمين لا يحب لهم إلا ما يحب لنفسه فإن أمراض القلوب بإذن الله سبحانه وتعالىٰ تذهب ، ويتنامىٰ علىٰ إثر هذه المحبة وقوتها في قلب العبد تتنامىٰ أعمال الخير مثل ما أشار الشيخ رحمه الله :

(وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَن يَقُومَ بِحُقُوقِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ بِذَلِكَ وَيُحِبَّ لَهُمْ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْمِنِ الْإِيمَانَ الْوَاجِبَ، بَلْ نَقَصَ إِيمَانُهُ بِقَدْرِ مَا نَقَصَ مِنَ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهِ.)

فإذن من أمور الإيمان وخصاله العظيمة وهي خصلة مكانها القلب أن تحب لإخوانك المسلمين ما تحب لنفسك أي من الخير .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلي وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه .